رؤيـــة اسلامـــيـة لأزمـــــة الخلـــــيج

يتشابك الان في ازمة الخليج عنصران، لا يصعب التمييز بينهما.. يتمثل احدهما في دخول العراق الكويت ويتمثل الآخر في احتشاد القوى الامريكية والغربية في الخليج، وعلى ارض المملكة العربية السعودية بسرعة وكثافة على نحو لم يسبق له مثيل من قبل.

ومهما يكن من امر الجدل الدائر حول علاقة الحدثين احدهما بالآخر.. هل دخول العراق الكويت «هو السبب في تدخل الحشود الامريكية والغربية.. او هو مجرد ذريعة استغلتها الولايات المتحدة لتنفيذ مخطط وضع سلفا، وكان فقط ينتظر التوقيت المناسب ؟ مهما يكن امر هذا الجدل فان رؤيتنا للأزمة من وجهة نظر اسلامية نجملها فيما يلي :

ان دخول العراق الكويت «حدث داخلي، يمكن وقوع مثله في دار الاسلام - كما يقع في غير دار الاسلام مادام التنازع في شئون الحياة من طبيعة البشر، ومن منطلق هذه الواقعية افترض القرآن الحكيم احتمال وقوع مثله، حتى بين المسلمين.-ومن هنا كان تشريعه للمنهج الذي يحكمه ويلزم المسلمين بتطبيقه، وقد حددته الآيتان (٩، ١٠) من سورة الحجرات.. ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين﴾ ﴿انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ (صدق الله العظيم)

في الآيتين تقرير حاسم : ان تورط فريق من المسلمين في مثل هذا الحدث لا ينفي انتماءه للاسلام، وان اوجب في الوقت نفسه وجوب الاخذ على يده، ورده عن بغيه - ولو استدعى الامر قتاله بيد المسلمين - حتى يفيء الى الحق الذي هو امر الله.

وبديهي ان تطبيق هذا المنهج يستلزم بالضرورة ان يكون في دار الاسلام مؤسسات يناط بها تطبيقه وتنفيذ ما رسمه من خطوات، وما تضمنه من أحكام، تدور حول «الصلح» «والتحكيم» و«ردع الباغي» حتى يفيء بكل الوسائل الملائمة.. التي تصعد الى حد قتاله متى اقتضى الأمر ذلك على ان يتم ذلك كله في جو من العدالة والانصاف، وبروح الاخاء.. التي تضمن معاملة كلا الطرفين (الباغي والمبغى عليه) على انه اخ في الاسلام، لا يسوغ لنا الغضب من فعله.. ان نترخص او نهدر شيئا من حق اخوته، فهو منا اولا واخرا !

وتطبيق هذا المنهج يتطلب كذلك قرارا اسلاميا جماعيا، تتولاه سلطة اسلامية مركزية يناط بها هذا القرار، وتنفيذه من خلال مؤسسات دار الاسلام، التي تكون تبعيتها الكاملة والمطلقة لهذه السلطة المركزية في دار الاسلام. ومن اسف ان كل هذا غائب من حياة المسلمين اليوم، وعليهم ان يتداركوه على الفور !

دخول العراق الكويت ليس الحدث الاول من نوعه في دار الاسلام، ولن يكون الحدث الاخير.. وحكم الاسلام فيه ومنهج معالجته هو ما قرره القرآن الكريم في ايتي سورة الحجرات.

اما الحدث الآخر - وهو احتشاد قوى امريكية وغربية في الخليج بهذه الضخامة، وبهذه السرعة - فرؤيتنا الاسلامية له، لا يحددها ان تكون قدمت من نفسها، او قدمت بدعوة من دولة او دول اسلامية فذلك لا يغير من هذه الرؤية.

فهذه القوى من حيث هويتها - تنتمي الى دول غير اسلامية، وولاؤها وتبعيتها - بالطبع لهذه الدول التي ارسلتها -وليس بمقدور احد -مسلم او غير مسلم - ان يدعي انها حولت ولاءها نحو الاسلام !

والدول التي تنتمي اليها هذه القوى الحاشدة لها ماض حافل بالعدوان على ديار الاسلام من مشرقها الى مغربها، وتاريخ الاستعمار وثيقة باقية تدمغها بهذا العدوان الذي امتد لاكثر من قرنين، وهو سبب فيما نعانيه من ضعف وتخلف، وتمزق، وانقسام !

وموقف هذه الدول وبخاصة الولايات المتحدة ، من قضايا المسلمين المعاصرة، ووقفتها المستمرة الثابتة الى جانب اسرائيل عدو العرب والمسلمين.. بين لا يحتاج الى تدليل.

والسؤال المطروح الآن على الساحة الاسلامية هو :

هل استدعاء هذه القوى، والاستعانة بها مما يجوز شرعا ويبيحه الاسلام ؟ وهي بحكم هويتها - تنتمي لمعسكر تتناقض مصالحه جذريا مع مصلحة الاسلام ؟

ان الرؤية الاسلامية المتجردة تجيب على هذا السؤال بهذا الجواب القاطع : ان الاسلام يرفض رفضا باتا، ومن حيث المبدا، ان تستدعي هذه الحشود الى أرض الاسلام، وان يمكن لوجودها فيها تحت اي مبرر كما يرفض رفضا باتا ان يستعان بها من جانب فريق من المسلمين على فريق ولو كان باغيا !

ان الباغي منا على اخيه، قد يكون خصما او حتى عدوا له، لحظة خصومته او بغيه، ولكنه بحُكم اسلامه الذي لم يبطله بغيه بنص القرآن، لن يكون خصما ولا عدوا للاسلام، والا لما ابقى القرآن الكريم على وصفه بالايمان، وكرر التنبيه على استمرار اخوته للمسلمين.

ومن الخلط بين الأشياء ان يصور شخص او فريق مخاصمة فريق آخر له او بغيه عليه.. على انه مخاصمة ومعاداة للاسلام، الا اذا كان يدعي لنفسه انه هو الاسلام !

نعم ! ان رد البغاة واجب وفريضة. ولكن من المنوط بهم تنفيذها والقيام بها ؟

والجواب قاطعا هنا : ان المنوط بهم هذه الفريضة هم المسلمون وحدهم. ينهضون بها بسلطان الاسلام ومن مؤسسات دار الاسلام، وكان الصحيح ان تتحرك القوى الاسلامية، بدلا من هذه الحشود الأجنبية وتقف حاجزا حتى يتم حل الموقف بتطبيق منهج الاسلام، وهو حل مازال قائما ونطالب به !

والذين يفتون بجواز الاستعانة بغير المسلمين في مثل هذه الأحداث ليس وراء فتواهم سند واحد معتبر من الكتاب او السنة.. وبهذا تظل فتاواهم مُعلقة في الهواء.

ان امامنا من نصوص الشريعة في الكتاب والسنة ما هو قاطع في المسالة، ولا يحتاج الى اجتهاد.

عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل «بدر» فلما كان بحرة الوبرة (مكان قرب المدينة) ادركه رجل، قد كان

يذكر منه جراة ونجدة (محارب مشهور) ففرح اصحاب رسول الله (ص) حين راوه ! فلما ادركه قال لرسول الله (ص) : جئت لأتبعك واصيب معك ؟! قال له رسول الله (ص) : تؤمن بالله ورسوله ؟! قال : لا ! قال (ص) فارجع فلن استعين بمشرك !

قالت عائشة: ثم مضى حتى اذا كنا بالشجرة ادركه الرجل فقال له كما قال اول مرة !

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كما قال اول مرة - قال : فارجع فلن استعين بمشرك

قالت : ثم رجع فاردكه بالبيداء، فقال له كما قال اول مرة : تؤمن بالله ورسوله ؟!

قال: نعم ! قال له رسول الله (ص) فانطلق. «رواه مسلم ح ٥ ص ٢٠١.

هذه فتوى رسول الله (ص) في المسالة، وهي قاطعة.. لا تحتمل اجتهادا ولا تاويلا ! لا يستعان بمشرك.. حتى في جهاد المشركين.. فكيف يستعان بغير المسلمين في قتال مسلمين ولو كانوا بغاة معتدين ؟!

ان الاستعانة بغير المسلمين على مسلمين.. تعني تمكين غير المسلم، والاذن له بقتال المسلم وقتله.. وهو امر لا يجوز.. يمنع منه نص قراني قاطع «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» (النساء ١٤١) فكيف اذا وضع الموقف كله تحت سيطرة غير المسلمين بهذه الاستعانة ؟ وهل يصدق عاقل في الدنيا ان هذه القوى المحشودة انما جاءت باشارة اصبع من السعودية او دول الخليج، وسوف ترجع من حيث اتت بمجرد اشارة اصبع اخرى منها ؟

ان هذه الاستعانة سدت طريق الحل السلمي للأزمة، واخرجته كلية من يد المسلمين ولا بد من استعادة هذا الحل ! من الذي يدير الأزمة من بدايتها، ويتحكم في الموقف برمته : حكام الخليج ام الرئيس الامريكي بوش ؟

الاستعانة بغير المسلمين تعني اتخاذهم اولياء حلفاء ونصراء واتخاذ اولياء ضد المسلمين، لا يجوز، يمنع منه نص قراني قاطع : «يايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء» الممتحنة (١) فان قالوا : ان العد هنا.. ليس المقصود به هؤلاء الذين استعنا بهم - قلنا لهم وما تقولون في هذه الآية : «يايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم» (المائدة ٥١) فهل تخرج الحشود في الخليج بهويتها وانتمائها عن هؤلاء ؟

يقولون : ان الولايات المتحدة وهي حاملة الراية قوة صديقة !

ونقول لهم : صديقة من ؟ صديقة المسلمين ؟ ام صديقة وحليف لعدوهم «اسرائيل» ؟

الا يقرا من يقول هذا الزعم هذه الآية من كتاب الله : «انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون» (الممتحنة ٩).

ان اقل ما توصف به الولايات المتحدة «انها ظاهرت عدونا اسرائيل ومازالت تظاهره علينا، وهذا يحظر على المسلمين ان يتخذوها وليا، ويستعينوا بها على اخوة لهم مسلمين.

امريكا ظاهرت اسرائيل على الفلسطينيين، منذ قيام اسرائيل.. ومازالت تظاهرها حتى على اطفال الحجارة العزل المستضعفين ! وهي التي استخدمت الفيتو لحماية اسرائيل من الشرعية الدولية، التي يتمسح بها بوش اليوم اكثر من ستين مرة في مجلس الامن، ووقفت معها في عزلة كاملة في تحد للمجتمع الدولي الذي تدعى اليوم احترام ارادته !

ان الاستعانة بغير المسلمين على المسلمين.. محظورة شرعا من حيث المبدا ! ولا مجال لجدل حولها! والاستعانة بهم في «الجهاد» وان كان ضد مشركين لا يجوز كذلك، لانه عبادة، ولأن غايته تناقض مع غاية غير المسلمين ومعتقدهم ! وحديث عائشة الذي سقناه هنا قاطع في هذا الحكم.

اما الاستعانة ببعضهم - في غير اغراض الجهاد وبصورة فردية.. فمسالة تحكمها مصلحة المسلمين، متروكة لتقديرهم !

قد يتعلق البعض بشبهة مؤداها : ان الاستعانة بالقوات الاجنبية في الخليج ضرورة ودفع المفسدة اكبر ؟

ورد هذه الشبهة : انه لا ضرورة هناك تسوغ هذه الاستعانة المحظورة ؟ ان دخول هذه الحشود ارض الاسلام، وتمكينها منها ينطوي على مفسدة اكبر من اية مفسدة محتملة لعدم وجودها ؟

ولنسال سؤالا صريحا : ايهما اشد خطرا وضررا:

تعرض حكم او نظام هنا او هناك للسقوط ام تعرض امة باسرها لمصير لا يدري احد الا الله.. ماذا سيكون ؟ بعد ان وضع امرها بيد عدو يتربص بها، وقد واتته فرصة الانقضاض عليها ؟

اين المصلحة :

في الحفاظ على مصير امة باسرها.. كيانها وامنها، شعوبها وثروتها.. ام في الحفاظ على مصير حاكم او امير يخشى على عرشه او سلطانه ان يزول ؟

ان الانظمة التي استدعت الولايات المتحدة وحلفاءها تبرر موقفها بانها عاجزة في مواجهة جيش العراق الذي تقول انه يهددها !

ونحن نسائل هذه الانظمة : من الذي يضمن لنا ولكم اخراج هذه القوى العاتية اذا ما بدالها - والساحة خالية - ان تبقى حيث هي جاثمة على ارضنا ؟ وتفتح صفحة سوداء جديدة لاستعمارنا ؟ لقد اتيتم امرا ادا، عليكم ان تتداركوه قبل ان ياتي الطوفان ويغرق الجميع !

لتذكروا جميعا ان الاندلس ضاعت في ظروف كهذه التي وضعتم امتكم فيها - يوم استباح ملوك الطوائف لانفسهم ان يستعين بعضهم على بعض بعدوهم، فقضى عليهم جميعا وطويت صفحة الاسلام واطفئت الشعلة التي اضاءت اوروبا ثمانية قرون !

ولتذكروا جميعا ان الخديو «توفيق استعان ببريطانيا، ودعاها - لتقضي له على «احمد عرابي» الذي ثار على مظالمه - فكانت النتيجة ان استعمرت مصر ومعها المنطقة.. اربعة وسبعين عاما !

فهل يكرر التاريخ نفسه ؟ نسال الله السلامة والمغفرة والله المستعان.

ان المجلس الاسلامي وهو يقدم هذه الرؤية انما يصدر عن موقف متجرد يضع مصلحة الاسلام العليا قبل وفوق مصالح الانظمة والاشخاص.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.